

# مشاهير المتقدمين والمناخرين

## شرقي في بلاط روسيا

﴿ المرحوم سليم دي نوفل ﴾

بقلم شرقي فاضل يقضي حق شرقي عاقل

توفي في بطرسبرج في هذا الشهر العالم الشرقي المشهور الاستاذ سليم دي نوفل الطرابلسي فرايت ان ابعث الى الجامعة بترجمة حياته اظهاراً لفضل رجال الشرق وشجراً لهمم ابنائه ليتشبهوا بفضلائهم

﴿ ترجمته ﴾ هو سليم بن عبدالله بك بن جرجس نوفل الطرابلسي اصلاً ومولداً . وكانت ولادته في سنة ١٨٢٨ مسيحية في طرابلس الشام وربى فيها تربية كريمة لان عائلته المشهورة في الفيحاء كان معظم رجالها من موظفي الحكومة العثمانية . وقد استدل الجميع منذ صغره على حسن مستقبله بما كان يلوح على وجهه من لوائح النباهة والذكاء ولكنه لم يدرك في خلد احد منهم انه سيكون يوماً من الايام من الرجال الذين يتفخر بهم الشرق ويبدل الغرب على استعداد الشرقي لكل تقدم وارتقاء . ولما كانت مدارس طرابلس مقصورة على تدريس المبادئ العربية ذهب الفقيد الى بيروت لداع عائلي وتلقى في احدى مدارسها من اللغة الفرنسية ما يمكنه من الفهم والتفهم بها . ثم عاد الى وطنه طرابلس واكسب على الدرس والمطالعة بغير استاذ . وفي سنة ١٨٥٨ عهدت اليه وكالة البواخر الروسية ولكنه لم يقم فيها سنة واحدة حتى طلبته حكومة روسيا الى بطرسبرج بواسطة البطريرك الانطاكي والبطريرك الاورشليمي للروم الارثوذكس وذلك ليكون استاذاً للغة العربية في كلية بطرسبرج . فسار الفقيد الى بطرسبرج على نفقة حكومة روسيا ولم تكن السكة الحديدية الروسية قد اتصت يومئذ بتلك العاصمة فاضطر الى ان يتناعم مركبة بجيها لتنقله اليها وعائلته . وكان ذلك في فصل الشتاء القارس وما ادراك ما هو الشتاء في روسيا . والذي زاد مشقة السفر

جهله اللغة الروسية ومحاولة الفلاحين الروس تعطيل مركبته ليضطروه الى ان يشترى منهم غيرها

ولما استقر في بطرسبرج دخل في الجنسية الروسية وانصب على درس اللغة الروسية والتأليف والخطابة باللغة الفرنسية والتدريس باللغة العربية . ولما اطلع القيصر اسكندر الثاني على بعض خطبه ومقالاته اعجبته رشافة اسلوبها . واتفق ان الشيخ شامل الشرکسي المشهور الذي حارب روسيا مدة ٣٢ سنة خضع وسلم لها في ذلك الزمن وكان لا يُحسن اللغة الروسية بل العربية فجُهل الفقيه ترجماناً بينه وبين القيصر . ومنذ هذا الحين بدأ تقدمه الحقيقي . فان القيصر احبه لذكائه ونشاطه ودقة نظره فقربه منه ووجهه داراً ومنحه لقب شرف وهو ( دي ) فصار يُسمى « ايزنه دي نوفل »

وفي سنة ١٨٧٦ عهد اليه القيصر رئاسة قلم في وزارة الداخلية وفي سنة ١٨٧٧ مُنح رتبة مستشار للبلاط الامبراطوري وفي سنة ١٨٧٩ مُنح رتبة مستشار للدولة . وارسلته الحكومة الروسية في ماموريات سرية الى بعض البلاد الاوربية منها سفارة الى روم مخابرة الحضرة البابوية في مسألة متعلقة باهالي فنلنده الكاثوليك التابعين لروسيا . وانتدبته عدة مرات للنيابة عن الروس في المؤتمرات الشرقية . وكان الفقيه يقوم بواجباته خير قيام فنحتته حكومته عدة وسامات منها وسام القديسة حنه من الدرجة الاولى . وقد جاء في براءة هذا الوسام ان القيصر منحه اياه « مكافأة له على خدماته السارة وتأليفه الممتازة » ومنها « الوسام الروسي » . وقد منحته فرنسا رتبة غران كورودون من جوقه الشرف

✽ انجاله ✽ تزوج الفقيه قبل سفره من طرابلس وكان له يوم سفره الى بطرسبرج غلامان وابنة . ورزق في بطرسبرج غلامين وابنة ايضاً . وقد ربي اولاده احسن تربية . منهم اليوم واحد نائب حاكم القوقاز والاخر قنصل لروسيا في بغداد والثالث محام مشهور في بطرسبرج والرابع موظف في الحكومة الروسية . وقد توفيت احدى بننيه وكانت على جانب عظيم من الذكاء وكانت موظفة في بلاط الامبراطورة . فحزن عليها الفقيه حزناً عظيماً . وكتب بعيد وفاتها كتاباً لبعض اخصائه ولما ذكر فيه الفقيده اشار الى حزن اهل بطرسبرج والبلاط عليها فقال « ان الكهنة انفسهم كانوا يبكون في المدفن حزناً عليها . وهل رأى احد كهنة يبكون على ميت » وقد امرت الامبراطورة بدفن فقيدته العزيزة في مدفن اسكندر فنسكي مدفن الاشراف اكراماً لها ولايتها

\* معارفه وموهباته \* كان الفقيه يعرف اللغة الفرنسية والعربية لغته الأصلية والروسية والانكليزية والتركية وغيرها . وقد تلقى اللغة الحبشية أيضاً . وطريقة درسه هذه اللغة لا تخلو من فكاكة . ذلك انه ورد في ذات يوم على القيصر كتاب سري من النجاشي باللغة الحبشية فعهد القيصر الى الفقيه بان يترجمه له فاخذ الفقيه ثم التمس انجيلاً باللغة الحبشية واخذ على ما يقال يتصفحه ويقابل كتابه بكلمات الكتاب واقام على ذلك حتى فهم معنى الكتاب . ولعله استعان على ذلك بعارف باللغة الحبشية وانما كان بعرض عليه كلمات الانجيل بلا اتساق ويطلب منه تفسيرها دون ان يوقفه على الكلمات الشبيهة بها في الكتاب

اما موهبته فمفي كلها باللغة الفرنسية . وكان في هذه اللغة كاتباً مخبراً . وكفى دليلاً على ذلك ان الخطبة التي القاها في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في باريس منذ بضع سنوات كتبها في اقل من ساعة قبل انعقاد الجلسة . ولكن الذي سهل له هذا الامر الصعب ان ذهنه كان مفعماً بموضوعها . وكان موضوعها « مطابقة الدين الاسلامي الحقيقي للمدنية » .

ذلك ان جميع مؤلفات الفقيه كانت في المواضيع الشرقية الاسلامية . منها كتاب في ترجمة صاحب الشريعة الاسلامية ( صلعم ) وقد حذا فيه الفقيه حذو الفيلسوف رنان في ترجمة السيد المسيح الذي نشرته الجامعة في هذا العام . ومنها كتاب عنوانه « الزواج في الاسلام » وآخر عنوانه « الملكية في الاسلام » وآخر عنوانه « النسل والطلاق » ولما انتشر احد هذه الكتب رأى جلالة السلطان ان بعض قرائه قد يؤولونه تأويلات لا يوافق المصلحة العامة فبعث الى بطرسبرج وطلب من القيصر ان يسأل المؤلف اذا كان يرضى بمنع نشر كتابه . فاستدعاه القيصر وقال له انا لا آمرك بذلك امراً اذ ليس ذلك من سلطتي ولكني اسألك اذا كنت ترضى بهذا المنع . فرضي بذلك رحمه الله بطبيعة خاطر اجابة طلب جلالة السلطان الذي عاش الفقيه تحت اكنافه ورعايته نحو نصف حياته وكان في اثائها من رعيته وابنائها

وامامنا الآن ونحن نكتب هذه السطور نقر بظ من « جريدة بطرسبرج » لكتابته « النسل والطلاق » مؤرخاً في ٢٢ ابريل سنة ١٨٩٣ . وقد جاء في هذا التقرير ثناء كثير على المؤلف . ومما قاله كاتب التقرير ان قراء المسيو دي نوفل لا يقرءون في كتبه فقط كتابات مستشرق من الدرجة الاولى وعالم متضلع باللاهوت والفلسفة ولكنهم يقرءون

ايضاً « كتابات رجل يجري في عروقه دم شبيه بدم العرب ونبههم العظيم ( صلعم ) ثم قال ان المسيو دي نوفل قد اوضح مشكلات الفقه الاسلامي للاوربيين وهو يثني في كتاباته على العرب وعلى روحهم العظيمة ولكنه يذكر السيئات مع الحسنات . وكلما تكلم عن النبي ( صلعم ) تكلم عنه باحترام ولقبه « النبي العظيم » : ثم انتقل الكاتب الى آراء المؤلف فقال عنها انها في منتهى الجراءة والغرابة . وقد امتاز بكونه يتكلم عن ادق المسائل واحرقها بنجاسة توفت على حقيقتها وانت تحسب انك لا تبحث فيها . وبذلك استطاع الخوض في مسائل فلسفية خطيرة لم يستطيعوا في اللغة اللاتينية الا الاشارة اليها

✽ اخلافة وآراءه ✽ كان رحمه الله ربعة الجسم كساه المشيب وقاراً وكان في لوائج وجهه انفة العالم واتضاع الفيلسوف . وما يروى عن فرط انتضاعه وكراهته للفخفة الباطلة انه لما كان في باريز ايام اجتماع مؤتمر المستشرقين فيها اراد الذهاب مع اعضاء المؤتمر لزيارة رئيس الجمهورية بصفته نائباً عن روسيا فيه ولكنه لم يلبس لباسه الرسمي ولم يضع عليه وسام جوق الشرف من درجة غران كوردون . فالح عليه صديقه ورفيقه في المؤتمر حضرة الامير امين ارسلان في وضع ذلك الوسام لان رئيس الجمهورية يبالغ في اكرامه متى راه حائزاً عليه . فرضي الفقيه اخيراً بذلك اكراماً لنائب روسيا ان لم يكن اكراماً لنفسه . ولكنه لما كان على الطريق في مركبة مع حضرة الامير امين غطى الوسام بلباسه لكي لا يظهر الا في حين الحاجة اليه

اما آراءه في الشرق والعرب والفلسفة فيقتضي بسطها مقالاً على حدة . وربما خلصت شيئاً منها وبعثت به الى الجامعة . انما اكتفي هنا بذكر رأي له في ارتقاء الاداب الكتابية في اللغة العربية . فان الفقيه يرى ان السجع والشعر على الطريقة القديمة من اشد العوامل الحائلة دون ارتقاء الكتابة في هذه اللغة لان الكاتب العربي لا يكون ذهنه منصرفاً الا الى الالفاظ وسجعها بدلاً من انصرافه الى درر المعاني واعتبار الالفاظ لباساً لها . اي ان اهتمامه يكون بالقشر لا باللباب . وهذا من اعظم مصائب بعض الكتاب . على اننا نظن ان الفقيه راي هذا الراي قبل هذا العصر بعشر سنين او عشرين سنة لان اسلوب الكتابة العربية قد تغير الآن تغيراً عظيماً . وذلك الاسلوب القديم لم يبق منه الا الاثر وهو آخذ في الزوال شيئاً فشيئاً فلا يبقى الا الاسلوب الطبيعي الذي مقتضاه كتابة الكاتب كما يتكلم لان المقصود ابلاغ المعاني لا صف الالفاظ

﴿ مقامه في روسيا ﴾ وقد ذكرنا فيما تقدم منزلة الفقيد في البلاط الروسي ونزيد على ذلك الآن انه كان الصلة بين روسيا وجميع العناصر الشرقية . فان امراء الشرق المسلمين الذين يفدون على بطرسبرج كانوا يعرفون به . وكان مقصداً لكل شرقي مسلم او مسيحي يفد الى بطرسبرج لحاجة سواء كان من القوقاز و بخارى وغيرها من البلاد الروسية التي يتكلم اهلها اللغة العربية او من الولايات العثمانية . وكان له مراسلات مع المرحوم جمال الدين الافغاني . واكثر بطارقة الشرق الذين كانوا يحتاجون شيئاً في روسيا كانت علائقهم معها على يده .

هذه هي الجوهرة الثمينة التي فقدتها روسيا . واذا كانت هذه الدولة نتعزى عن فقده بمن لديها من رجالها العظام في كل علم وفن فان الشرق لا يتعزى عن وفاة فرد من افراده لقلتهم في ربوعه . ابدل الله هذه القلة كثرة ونفع الشرق بقوى ابنائه ومواهبهم . بدلاً من تركهم ينفقونها خارجاً عنه .

